السالكون إلى الله بأنواره

للأستاذ محمد عبد الشافعي

الصوفية السالكون إلى الله تعالى ينقسمون إلى قسمين . قسم سالك إلى الله تعالى مهتد إليه بأنوار طاعته . يشير اليهم قول الله تعالى (اتقوا الله يجعل لكم فرقانا تمشون به ويغفر لكم) والفرقان نور ثمره التقوى يستعين به المرء فتنقشع به ظلمة الجهل فى معرفة الله وبه يفرق السالك السائر إلى الله تعالى بين الحق والباطل ويستبين له به الصراط المستقيم . وبقدر طاعة المرء وتقواه يكون نوره . قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما يعلم ورثه الله علم مالم يعلم » — وهذا القسم ولاشك مفتقرون إلى الأنوار ولا سبيل اليها إلا بطاعة الحق والاقبال عليه . لذلك كانت هدايتهم فى سيرهم إلى الله بنور طاعتهم له فهم مهتدون اليه جل شأنه بأنوار توجههم إليه .

أما القسم الثانى وهم الواصلون إليه سبحانه فهؤلاء قد واجههم الحق تبارك وتعالى بأنواره بعد أن سلكوا السبيل إليه فجذبتهم أنوار مشاهدته إلى عين التوحيد ففنوا عن أنفسهم وكانوا لله لاشىء دونه .

والفناء عن النفس يستتبع أمور ثلاثة . فناء الارادة — وفناء الصفات — وفناء الذات . . . — أما فناء الارادة فهو تلاشى ارادة العبد فى ارادة سيده فلا يريد إلا ما أراد ولا يتم ذلك للعبد حتى يعلم أن لكل شىء غاية ولكل غاية وسيلة وأن الغاية من الايجاد هو والوسيلة فى بقائه الأكوان. فكل شىء فى الوجود إنما خلق من أجله . وهو وحده خلق لله . ومن الضلالة أن يشغل المرء بما خلق من أجله عمن خلق من أجله — قال تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) (وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه)

واذا كان العبد مخلوق فى الحقيقة لله فليس له فى نفسه حق مطلقا فلا يتصرف فى شىء ولا فى نفسه إلا وفق ما أراد مالكه . ومراد الله بين فى كتابه وشرعه — وما من فعل من الأفعال أو غاية من الغايات الا ولابد أن يكون لله فيها حكم إما حلال وإما حرام وإما مندوب واما مكروه واما

مباح . — وحتى ذلك المباح فى الحقيقة ما كان مباحا الا لأن حكم الله فيه الاباحه . وهذا المباح قد قيده القوم رضوان الله عليهم — بالورع . فان استعمل بقصد الاستعانة على ما خلق المرء من أجله وكان وسيلة فى مراد الحق أخذ ولاشك حكم الغاية فتنقلب عادات المرء عبادة وتكون حركاته وسكناته قربات له عند ربه . اذ لايفعل ذلك لهواه ولا لما يعود عليه من حظ آجل أو عاجل . وأنما قام به على أنه مراد الله منه ايمانا ويقينا بقول الله الله تبارك وتعالى (وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقضاء الله شامل للأحكام التنزيلية والأمور الكونية معا . ورحم الله خير من تحقق بهذا بعد رسول الله صلى عليه وسلم وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ يقول — أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القدر . ومن كان هذا شأنه لايريد الا ما أراد له سيده وشاهد الحال فيه ينادى (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وإذا كان هذا شاهد الحال فيه فأى شى اذاً له فى نفسه — حقا أنما هو لله ومن كان الله له فقد أفلح ومايعقلها الا العالمون . . .

ثم لفناء العبد فى ارادة سيدة على هذا النحو ثمرة بينها لنا رسول الله كان الله صلى الله عليه وسلم على لسان الحضرة الالهية حيث قال فيما يرويه لنا البخارى « ما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه وما زال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه متى أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها إلى آخره . . »

فثمرة الطاعة اذا هى محبة المعبود للعباد قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ولفظ المحبة إذا أطلق على العبد كان بمعنى وإذا اطلق على الحق كان ولاشك بمعنى آخر فالمحبة من العبد هى تعشق النفس لاستكمال ما فقدته من كمال وهذا لايجوز ان يتصف به الحق إذ انه الواهب للكمال ولا يجوز عليه النقص سبحانه ،

واما محبة الحق لعبده فيرجع معناها إلى مسارعة الحق تبارك وتعالى إلى كشف الحجاب الحائل بينه وبين عبده لينعم المحب بمشاهدته وقربه . ولكن هل يشهده المحب أو يراه بنفسه . . وأنى للحادث أن يرى القديم . . هذا محال . إذا فلا بد أن يراه به حال تحققه بمقام كنت سمعة وبصره — نعم يشهد الحق بالحق فى حال فنائه عن نفسه بربه إذ لا يشهد الله الا الله — وقد قال ذلك عارف القوم رضى الله عنهم .

إذا رأيت حبيبي بأى عين أراه
بعينة لا بعيني فلا يراه سواه

وقال آخر —

ياشاهد الذات منك الذات بادية
منها لها فلا أنت الجزء والكل

ومتى تم ذلك للعبد تبين له أن ماكان مضافا إليه من قبل من سمع وبصر وقوة وادراك فى حال حجابه انما هو لله من حيث تنزله وظهوره وللعبد إضافة واسنادا . وكان الظهور فيه بحكم القابل منه ويخرج من حكم القيد البشرى إلى حظيرة الاطلاق الصفاتى لله فيدرك الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر الواقع ولا أقول أنه يعلم كل مايعلمه الحق أو يدرك كل ما امتد اليه بصره إذ أن ذاك محال ومتوقف على مدى استعداده وصحة فنائه فى الله وبقائه به علما بأن الحق حق فى كل مقام والعبد عبد فى كل مقام والحقائق لاتتبدل وانما هو عطاء الحق وفضلة على عبده وقد تحقق بذلك بعض الصفوة من الأمة المحمدية وظهر أثره فيما كان من أمر عمر رضى الله عنه وسارية اذ يناديه عمر من على منبره بالمدينة ويسمعه سارية وهو بمصر فان لم يكن ذلك عن رؤية من عمر لم تحجبة فيها الكشافات الحسبة والبعد الشاسع بين المكانين فكيف تكون اذاً ؟ ! — وما كان من أمر عثمان رضى الله عنه اذ دخل عليه رجل وكان قد نظر إلى امرأة فى الطريق غير محرم فشاهد أثر المخالقة الشرعية على عينية فقال عثمان — أيدخل على أحدكم وأثر الزنا باد فى عينيه . فيقول الرجل — أوحى بعد رسول الله ؟ ! فيقول — لا ولكنها بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . — فهو ينظر بنور الله فيه ولم يكن ناظرا اليه بنفسه واذا ففى الأمر قوة أخرى غير قوة البشر المحدودة التى لاترى إلا إلى حد ولا

ترى ما حبهتة الكشافات وبعد : ففناء
صفات العبد ثمرة الحب الالهى
وللامام أبو بكر الكتانى فى ذلك
قولا يرويه لنا عن الامام الجنيد رضى
الله عنه فيقول — جرت مسألة بمكة
أيام الموسم فى المحبة فتكلم الشيوخ
فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا
فقالوا له — هات ماعندك ياعراقى
فأطرق ساعة ودمعت عيناه ثم قال —
عبد ذاهب عن نفسه ومتصل بذكر
ربه قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبه
أحرق قلبه أنوار هيبته وصفا شربه
من كأس وده وانكشف له الجبار
من أستارغيبة فان تكلم فبالله وان
نطق فمن الله وإن عمل فبأمر الله وان
سكن فمع الله وهو لله ومع الله . فبكى
الشيوخ وقالوا — زدنا على هذا مزيد
جبرك الله ياتاج العارفين . — ففناء
الصفات انما هو الخروج بالله من حكم
القيد البشرى إلى حظيرة الاطلاق
الصفاتى ومن ثم يكون الله لك
وهو النور فشتان بين السالك
والواصل — السالك للأنوار .
والواصل له النور لفقدان الطلب بحكم
الفناء وتحقق الوصل . ثم التمكن فى
مقام الوصل يقتضى إرجاعك منك
إليه ذاتا فلا تشعر بوجودك وانيتك
وانما تشعر بقيومية الحق لك فانت
العدم من حيث انت وهو القائم
بنفسه والمقوم لك (الله لا إله الا هو
الحى القيوم) سبحانه سبحانه اليه
يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه.

محمد عيد الشافعى